قِيامُ الثَّوْرَةِ البُولْشَفِيَّةِ :

خلالَ وجودِ الشيخ « عبدِ الرحيم » في « خُوقَنْد » قامتْ في روسيا الثورةُ « البُولْشَفِيَّةُ » الشيوعيةُ سنة (١٣٣٥) هـ (١٩١٧) م ، وبعد موت زعيمها « لِينِين » اغتيالًا سنة (١٣٤٣) هـ تولى الحكم « سِتَالِين » ؛ وكان يهوديًا متوحشًا سَفَّاكًا للدماء ؛ فسَامَ الناسَ سوءَ العذاب ؛ وأصابَ بلادَ ما وراء النهر « تركستان » الكثيرُ من بطشِهِ ؛ فقَتَلَ الملايين من مسلميها ، وهجَّرَ الملايين ، ونَفَى الملايين إلى « سِيبِرْيَا » ويكفي دلالةً على الإبادةِ الجماعيَّةِ التي ارتكبها هذا الوحشُ الشيوعيُّ أنَّ سكانَ « تركستان » قبل الثورة الشيوعية كان تعدادهم (٣٦) مليونًا ؛ ثم بعد حملات الإبادة الستالينية صاروا (٢٧) مليونًا تقريبًا [١] وربما أقل فقد ذكرت بعض المصادر أنهم (١٤) مليونًا [٢].

وثارَ المسلمون فأعلنوا الجهادَ ؛ وانطلقت جحافل المجاهدين من مدينةِ « خُوقَنْد » [٣] بقيادةِ العلماءِ ؛ ثم انتشرت روحُ الجهاد انتشارَ

---

(١) إجمال حالات المسلمين في روسيا / للسيد مبشر الطرازي / مطبعة شباب محمد بالقاهرة ص ٨ ؛ وحقائق عن التركستان المسلمة / لمحمد أمين إسلامي / طبع بجده سنة ١٣٨٤ هـ / ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق

(٣) راجع (إسلام يولي) بالأوزبكية / للسيد قاسم الأنديجاني / طبعة مدرسة الأوزبك بالمدينة المنورة سنة (١٤٢٦) هـ / من ص (٧٣) إلى ص (٨٥) .

النار في الهَشيمِ ؛ فثارَتْ جميعُ مدنِ « تركستان » ، خاصة مدينة « بخارى » فقد أعلن أَميرُها « محمد عالم خان » الجهادَ ، وكان يقود جنودَه اللواءُ « أنورُ پاشا » التركيُّ ؛ وكان قد جاء من « الآسْتَانَه » بعد سقوط الخلافةِ العثمانيةِ ، وكان له يَدٌ في سقوطها هو و « طلعت پاشا » وزعيمُهُم « مصطفى كمال » اليهوديُّ « الدُّنْمِيُّ » ؛ ولَمَّا اكتشَفَ « أنورُ پاشا » حقيقةَ المؤامرة التي شارَكَ فيها دون أن يعلم وأدرك فداحةَ الجريمةِ التي ارتكبها هو ورفاقُهُ في « جمعيةِ الاتحاد والتَرَقِّي » ؛ أراد أن يكفِّرَ عن ذلك فالتحق بالمجاهدين في مدينة « بخارى » ؛ الذين استفادوا من خبراته العسكرية ، وارتفعت معنوياتُهُم بوجودِهِ معهم ؛ واستُشْهِدَ « أنور پاشا » عند أبوابِ مدينةِ « بخارى » وهو يقاتل الجيوشَ الروسيةَ « البُولْشَفِيَّةَ » الكافرةَ سنة (١٣٤١) هـ ، رحمه الله وغفر له .

وتكوَّنَتْ مجموعاتٌ للمجاهدين في مختَلَفِ مناطقِ « تركستان » ، وكانوا يُسَمُّونهم « قُرْبَاشِيلَار » أي الفدائيون ، وشارَكَ في الجهاد « محمد أمين حاجِّي المرغلانيُّ » القُومَنْدَانُ السابقُ بالجيش التركي وصهرُ الشيخ « عبدِ الرحيم » ، ووَضَعَ خبرتَه العسكريةَ في خدمةِ الجهادِ ، وعُرِفَ بين الناس بـ « محمد أمين قُرْبَاشِي » ؛ وأبلَى بلاءًا حسنًا في القتال ضد الروس الشيوعيين ؛ وكنْتُ أسمع والدَنَا يتحدث عنه وعن صبره ، وقوةِ شكيمتِهِ ، وشجاعتِهِ : بمحبةٍ فائقةٍ واحترامٍ كبيرٍ ..

جاءَهُم يومًا في جُنْحِ الظلام مُثْخَنًا بالجراح ؛ بعد أن خَاضَ معركةً ناجحةً هو ومجاهدٌ آخرُ ضدَّ رَتْلٍ من الجنود الروس ؛ وأَوْقَعَا بهم إصاباتٍ كبيرةٍ ، واستُشْهِدَ رفيقُهُ ، وقُتِلَ حصانُهُ ، فتَسَلَّلَ ماشيًا حتى وصلَ إلى بيت صهره الشيخ « عبد الرحيم » في « خُوقَنْد » واستلْقَى على ظهره بعد ما خَلَعَ معظمَ ثيابِهِ إلا ما يستر العورةَ، وجاءت أختُهُ التي هي زوجةُ الشيخ « عبد الرحيم » ، وأشعلَت النارَ وأَحْمَتْ فيها سِكينًا لِتَعْقِيمِهَا ؛ ثم أخذَتْ تُخْرِجُ بها الرصاصاتِ التي أصابَتْه في ساعِدِهِ وفي فخذِهِ وهي تبكي شفقةً على أخيها ؛ وهو نائمٌ قد عَلَا غَطِيطُهُ ؛ حتى استخرجَتِ الرصاصاتِ وضمَّدَتْ جراحَهُ وقبل الفجر بقليل خرج من عندهم ، وركب فرسًا جديدة أعدَّهَا صهرُهُ الشيخ « عبد الرحيم » وذهَبَ ؛ التحق مرةً أخرى بالمجاهدين .

استمرَّ هذا الجهادُ ضدَّ الروس الشيوعيين ثماني سنين ؛ وكاد ينجح في إخراج الروس من البلاد ؛ لكنه بدلًا من ذلك انتهى إلى الفشل الذريع ؛ ولهذا الفشل أسبابٌ كثيرةٌ ؛ من أهمها الدَّاءُ العُضَالُ الذي يُدَمِّرُ كلَّ أمةٍ إذا أصابَهَا ؛ وهو التنازع واختلافُ الكلمةِ ؛ لقد دَبَّ داءُ الفُرْقَةِ بين المجاهدين حتى صار بعضُهُم يقاتل بعضًا ؛ وكان للعدو يَدٌ خبيثةٌ خَفِيَّةٌ في ذلك ، ونسِيَ كثيرٌ من المجاهدين ذلك التحذيرَ الربَّانيَّ : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] فذهبَتْ ريحُهُمْ شَذَرَ مَذَر .

ومن العوامل التي أسرعت بالفشل أنه اندس بين المجاهدين منافقون لبسوا مُسُوح الجهاد وهم أبعد الناس عن الجهاد ؛ كانوا

شراذم من عصابات اللصوص ؛ انتهزوا الفرصة فهجموا على الناس يقتلون ويسرقون ، ويغتصبون النساء ، ويخطفون الأولاد والبنات ، وهؤلاء اللصوص شَوَّهُوا صورةَ المجاهدين في نفوس الناس ؛ إلا عند من يعرفهم ، وكان الناس يسمون هذا الصنف ممن انتحل الجهاد « بَاصْمَاچِيلَار » أي قطاع الطرق ؛ أو اللصوص الذين يُغِيرُون على الناس ..

ولما رأى « محمد أمين حاجِّي قُرْبَاشِي المرغلاني » الفوضى دَبَّتْ في صفوف المجاهدين ، ورأى أولئك « البَاصْمَاچِيلَار » المنافقين غلبوا على الساحة يئس من المجاهدين فاعتزلهم واختفى ؛ اشتغل مؤذنًا في مسجد صهره الشيخ « عبد الرحيم » في « دِيرِزْلِيك مَحَلَّه » بخُوقَنْد ؛ مُؤْثِرًا العُزْلَةَ والتَّفَرُّغَ للعبادة في حجرةٍ من الحجرات المحيطة بفناء المسجد الذي تتوسطه بركةُ ماءٍ تحيط بها الأشجار الباسقة ..

ولكن المنافقين والوشاة والجواسيس لم يمهلوا « محمد أمين حاجِّي » كثيرًا ؛ وحرموه من تلك العزلة الجميلة ؛ جاءت قواتُ الروس ليلًا واعتقلوه وأخذوه إلى حيث لا يدري أحد ؛ ومكث مُعْتَقَلًا في المعسكرات الرهيبة الستالينية ثلاثَ سنين ؛ حَفِيَتْ خلالَها قَدَمَا الشيخ « عبد الرحيم » وهو يجري في كل جهةٍ لعله يسمع خبرًا عن صهره المعتقل ؛ وأخيرًا عرف في أيِّ معسكر هو ؛ وفي أيِّ ساعةٍ يخرج إلى الساحة مع زملائه المعتَقَلِين ؛ ووقف الشيخ « عبد الرحيم » خلف الأسلاك الشائكة يتربص فرصةً سانحةً لرؤيةِ صهره ، ومعه ولدُهُ الصغير « فتحُ الله » أو « عبدُ الفتاح » ، وفي صدر الغلام لهفةٌ لرؤيةِ

خالِهِ ؛ وتحقَّقَ لهم ذلك ؛ ها هو « محمد أمين حاجِّي » وسط الصفوف ؛ كان كالشبح من شدةِ الهُزَال ؛ ذلك البطل القوِيُّ البُنْيَةِ الشديدُ الشَّكِيمَةِ صار جلدًا على عظم ، وانهمرت دموعُ الشيخِ « عبد الرحيم » حزنًا على صهره المجاهد ؛ وأما الصغير « فتحُ الله » فإنه لما لَمَحَ خالَهُ صاحَ بأعلى صوته : خَالِي خالِي . وانتبه « محمد أمين حاجِّي » للصوتِ فالتفت إليهم ورآهم من بعيد ؛ ورفع يده مُلَوِّحًا ؛ وصار الشيخ « عبد الرحيم » يردد : إنه حَيٌّ إنه حَيٌّ الحمدُ لله على ذلك . وانتبه حراسُ المعسكر لهما ؛ فأقبل عدد منهم وضربوا الشيخَ « عبد الرحيم » بكعوب البنادقِ حتى أَدْمَوْا وجهَهُ ؛ وسارَعَ بحمل ابنِهِ الصغير وَوَلَّى هاربًا ولم يُعَقِّب ..

لكنَّ الشيخَ « عبدَ الرحيم » بعدما تأكد من أن صهره على قيد الحياة بدأَ السعيَ لإنقاذِهِ ؛ بَذَلَ كلَّ وسيلةٍ ممكنةٍ ؛ ووسَّطَ بعضَ كبار الموظفين في الشرطة وفي غيرها من الدوائر ذاتِ العلاقة مِمَّنْ كانوا من تلاميذه ويكتمون إيمانَهُم ؛ وبَذَلَ كثيرًا من الأموال أُعْطِيَتْ رشَاوَى للروس ؛ حتى تَمَّ إطلاقُ سراح « محمد أمين حاجِّي » ، والتأَمَ شَمْلُ الأسرة بعد محنةٍ رهيبةٍ مَريرةٍ ، ولا تَسَلْ عن البكاءِ والعويلِ حُزْنًا على حالةِ محبوبِهِم الجسديةِ ؛ وفرحًا بنجاته وإطلاق سراحه ؛ مشاعرُ متناقضةٌ اتحدَتْ في البكاء .

أما المنافقون الذين وَشُوا بِهِ وكانوا السبب في محنته ثلاثَ سنين فقد صُعِقُوا وأُسْقِطَ في أيديهم لما علموا بإطلاق سراحه وأنه الآن في « دِيرِيزْلِيكْ مَحَلَّه » ؛ وتملكهم الرعبُ لسببين :

أولها : أنَّ إطلاق سراحه كان مستحيلًا فإنَّ التهمةَ المُلْصَقَةَ بِهِ كانت كفيلةً بإعدامِهِ ؛ أما وقد تمكَّنَ الشيخُ « عبدُ الرحيم » من إطلاق سراحه فهذا يدل على أنَّ له واسطاتٍ عليا قويةً .

ثانيها : ما يعلمونه من تاريخ « محمد أمين حاجِّي قُرْبَاشِي » الجهاديِّ وشدةِ بطشِهِ بالأعداءِ ، وسرعةِ فَتْكِهِ بالخونةِ والعملاءِ ؛ فأيقنوا بأنَّ انتقامَهُ منهم آتٍ لا محالَةَ بمجردِ أن يستردَّ عافيتَه ؛ فهرَبَ بعضُهُم من المحلَّةِ ، وانخنَسَ الباقون في جحورهم يترقَّبُونَ ؛ ولو عَلِمَ هؤلاءِ وهؤلاءِ أنَّ « محمد أمين حاجِّي » قد قرر أن يتفرَّغَ للعبادة ويعتزلَ الناسَ ؛ ويتوقَّفَ عن القتال لما دَبَّ الرعبُ في نفوسِهِم الشريرةِ ..

وبعد فترةٍ وجيزةٍ مَرِضَ الشيخُ « عبدُ الرحيم » ثم توقَّفَ قلبُهُ عن العمل ؛ وتوفِّيَ عن عمرٍ يناهز الثالثةَ والستين ؛ لم يتحمَّلْ قلبُهُ الكبير أكثَرَ من ذلك ..

وبعده بستةِ أشهر تُوفِّيت زوجتُهُ المُحِبَّةُ ولحِقَتْ به ؛ وبقِيَ الصغارُ في كفالةِ خالِهم ، ورعايةِ تلميذِ أبيهِم الشيخ « محمد أَعْظَم الحُسَيْنِيِّ » الذي خَلَفَهُ في الدرسِ في مسجدِهِ في « دِيرِيزْلِيكْ مَحَلَّه » .

وبعد بضعة أشهر من وفاة الشيخ « عبد الرحيم » هاجر « محمد أمين حاجِّي » إلى « أفغانستان » ؛ فقد جاء من المُحبِّين من حذَّره وأخبره بأن الروس يُعِدُّون لاعتقاله من جديد ..

الشيخ محمد أعظم الحسيني

وتفرَّقَ الأولادُ : عبدُ الله لحق بخاله في « أفغانستان » ، وحبيب الله ذهب مع أحد تلاميذ والده ومحبيه ، واختفى لا يُدرَى أين أرضُهُ ، ثم سُمِعَ خبرٌ بأنه في إيران ، ومنها انتقل فيما بعد إلى الحجاز واستوطنَ « مكةَ المكرمةَ » ، وبقيَ الصغيران « فتحُ الله » أو عبد الفتاح وعمره ثمان سنين ، و « نصر الله » وعمره ست سنين بقيا في كفالة الشيخ « محمد أعظم الحسيني » الذي واصَلَ وظيفةَ أستاذِهِ الشيخ « عبد الرحيم » في درسِهِ بالمسجد ؛ وتقاطَرَ التلاميذُ والشبانُ على حلقتِهِ ؛ يدرِّسُهُم القرآنَ ، وما تَيَسَّر من العلوم الشرعية كما كان يفعل أستاذُهُ ..

واستمرَّ هذا العطاءُ رغم فسادِ الأحوالِ وتخريبِ « البَلَاشِفَةِ » لكلِّ شيءٍ وسيطرتِهِم على كل شيءٍ باسم الثورة ، وطبيعيٌّ ألا يكونوا راضين عن نشاط الشيخ « محمد أعظم » في مسجده ؛ خاصةً وهم يرون التفاتَ الشبانِ إلى دَرْسِهِ ، والتفافَ التلاميذ حوله ، وبدأت المؤامراتُ والوشاياتُ ؛ وفي يومٍ أَغْبَرَ جاءت المخابراتُ « البُولشَفِيَّةِ » واعتقلت الشيخ « محمد أعظم » ووجدَتْ معه في الدرس تلميذًا واحدًا هو « فتح الله » أو عبد الفتاح ، ولكن لصغر سنه لم يعتقلوه مع أنه ضُبِطَ بالجُرْمِ المشهود وهو دراسةُ الدين ؛ وكان الشيوعيون

يُسَمُّون علومَ الدين « الرُّوحَانِيَّاتِ الرَّجْعِيَّةَ » وأُحِيلَ الشيخُ « محمد أعظم » إلى المحاكمة ومعه التلميذُ الصغيرُ « فتحُ الله » ، وحُكِمَ على هذا التلميذِ الذي وقَفَ في المحكمةِ «البُولْشَفِيَّة » رغم صغر سنه – كان في الثامنة من عمره – بغرامةٍ مالية قدرها ثلاثون روبلًا ؛ إنها أخلاقيات الثورة !! وحُكِمَ على الشيخ « محمد أعظم » بالسجن ستةَ أشهر ..

وبعد بضعةِ أيام جاءه في السجن ضابطٌ كبيرٌ أوزبكيٌّ « بولشَفيٌ » جاء سرًا وفي جُنْح الظلام وأخرجه من السجن ، وعرَّفَه بنفسه إنه أحد تلاميذ شيخه الشيخ « عبد الرحيم » ، الْتحَقَ بالبلاشفةِ وهو يكتم إيمانَهُ ، ونَصَحَ الشيخَ « محمد أعظم » قائلًا : لا تَبْقَ هذه الليلةَ في « خُوقَنْد » لأن البلاشفة قرروا إعدامَكَ فجرًا ؛ ووَجَدَ الشيخُ بعضَ الأدلاء من التركمان أعدَّهم بعضُ محبيه بالتنسيق مع ذلك الضابط ؛ وخرجوا به إلى الحدود المتاخِمَةِ لأفغانستان ، واختبَأَ في إحدى القرى أيامًا حتى هَدَأَ الطلبُ ؛ ثم جاءه أولئك التركمان وتجاوزوا به النهرَ إلى داخل « أفغانستان » ، ويُقْصَدُ بالنهر « جَيْحُون » وهو الذي يفصل بين « أوزبكستان » و « أفغانستان » ؛ واستقرَّ المقامُ بالشيخ « محمد أعظم » في بلدةِ « أَنْدْخُويْ » الأفغانية ، وبعد شهر أو أكثر لحِقَتْ به ابنته « سارة » ولم يكن له من الولد غيرُهَا ، ولحِقَ به ابنا شيخه : « فتحُ الله » أو عبد الفتاح ، و « نَصْرُ الله » ، وأخواه : « المُرْتَضَى » وكان حافظًا متقنًا ذا صوت جميل يخلب الألبابَ ، و « مُوسَى » وكانت له عنايةٌ بالأعشاب والطب الشعبي ..

الشيخ مرتضى الحسيني

وأقَامَ الجميعُ في « أَنْدْخُوي » بضعَ سنوات ؛ كانت هانئةً جميلةً بَرَزَ فيها الشيخ « محمد أعظم » بعلمِهِ حيث فَتَحَ درسًا ومَقْرَأَةً في أحد مساجد « أَنْدْخُويْ» واشتُهِرَ أخوه « المُرْتَضَى » بالقراءة ، حيث كان يصلِّي التراويحَ في رمضان ، ويرتِّلُ ترتيلًا يملك القلوبَ ؛ فصار أعيانُ « أَنْدْخُوي » يتسابقون إليه ليصلِّي في مساجدهم ؛ فكان يختم كلَّ سَبْع ليالٍ ختمةً فيجمع ثلاثةَ مساجد أو أكثر في كل رمضان ، ولما اشتَدَّ عودُ « فتحِ الله » ، صار يأخذه معه ليشاركه في التراويح ، فصارا كفَرَسَيْ رهانٍ في قوة الحفظ وحسنِ الصوتِ وجمالِ القراءةِ ، فانكبَّ عليهما الناسُ من سائر الأنحاء .